

ضياع الهوية العراقية في المنفى الغربي دراسة في ضوء النقد الثقافي

مقدمة:

لقد أصبحت قضية أزمة الهوية اليوم من أخطر المشاكل التي تواجه مجتمعاتنا العربية وخاصة العراقية؛ لما تعاني منه هذه المجتمعات من حروب داخلية مع الإرهاب ومن قضايا طائفية، قد أسهمت في يأس المواطن العراقي وتشاؤمه من تغيير الأوضاع؛ مما دفعه إلى الهجرة إلى الغرب؛ لكي يتمكن من عيش حياة طبيعية وأمنة. وتأسيساً على ما تقدم، سعى هذا البحث لدراسة ضياع الهوية العراقية في المنفى الغربي.

فالهوية: هي مجموع السمات الفكرية والثقافية والمعرفية المشكلة لفرد ما، أو مجموعة من الأفراد والتي يمتازون بها عن غيرهم، ففي حالة فقدان الفرد لتلك السمات المميزة لشخصيته وهويته، فإنه يكون بذلك معرضاً لهويته الأصلية للضياع التام⁽¹⁾.

ولقد طرحت الرواية العراقية الحديثة هذه القضية في كثير من نماذجها، ووقفت على مناقشة وطرح ما يعانيه المهاجر المغترب من ضياع، وتذبذب، وعدم الشعور بالانتماء إلى موطنه الاصلي، ولا إلى بلد اللجوء، مما يخلق صراعاً مع ذاته بين المحافظة على هويته الأصلية وثقافته الأولى وبين الانفتاح على الهوية الأخرى، وتقبلها، والانسجام معها⁽²⁾.

نلمس هذا الضياع والتشظي للهوية في رواية (كم بدت السماء قريبة)* لـ(بتول الخضيرى)، التي طرحت فيها الكاتبة هذه القضية من خلال قصة طفلة من أب عراقي وأم انكليزية، فعانت تلك الطفلة من

أ.م.د. وسام علي محمد
كلية التربية للبنات/ جامعة الكوفة
الباحثة رقية ناظم ظاهر

شرقياً ينحصر بين شروق وغروب حالمين من دخان بنفسي أثيري لا يمكن تجاوز إغرائه، فإذا بها حر خانق يتسلق النخل، ذباب في الصباح، بعوض في المساء... حتى لو رغبت في السباحة فأوحال النهر ستسم بشرتي، وقد يغتصبني هؤلاء على أية حال" (١٠).

فلم تستطع الأم التكيف مع المجتمع العراقي بالرغم من كل محاولات زوجها لاندماجها معه، وتقبل ثقافة مجتمعه، بل ظلت منغلقة على ذاتها، ورافضة لهذا المجتمع الذي كانت تعدّه بالبداي، والمتخلف" (١١).

لكن هذا القلق والضياع تواجهه هذه الأم حتى بعد عودتها لوطنها -انكلترا- (١٢) "لم أعد أنتمي إلى هنا عندما غادرت انكلترا حينها قررت أن أحاول الانتماء إلى الشرق لكن لم أنجح في انتمائي إلى الشرق رغم كل محاولاتي الآن وقد عدت ثانية، أجدني لا أستطيع الاندماج من جديد... إلى موطني الأصلي... نحن لا ننتمي إلا لظلّ أجسادنا التي ترافقنا، ما دمنا أحياء" (١٣).

لقد كانت (الراوية) الشخصية الرئيسية ضحية لثمرة تزواج ثقافتين غير متكافئتين، تسعى كل منهما إلى فرض هيمنتها الثقافية على الآخر، فكان الشجار والصراع بين الوالدين مستمر

ضياع هويتها الأصلية وتذبذبها؛ نتيجة لاختلاف الثقافتين بين الوالدين (٣).

لقد كان الأب حريصاً على ممارسة الطفلة للعبادات العراقية الأصيلة، وعدم ابتعادها عنها (٤) "يا مدام دعيتها تختلط بعبادات أهل الريف... دعيتها تتعلق بالأرض والبشر كما تربينا نحن... " (٥)، في حين كانت الأم تتذمر من تلك العادات وترفض تلك المدارس البدائية وتصر على تعليمها للرقص واللغة، وتمنع اختلاطها (٦) "بينت الغجر خدوجة والمعتوهين الأميين الذين يجرون طوال النهار في المزرعة المقرفة" (٧).

لقد كانت الطفلة واعية لما يحدث معها من اختلاف الثقافتين بين الأب والأم، فكان كل منهما يحاول طمس ثقافة الآخر، وخاصة بعدما تكتشف الطفلة بضمور عاطفة الأم تجاه الأب، واكتشافها لخيانتها له مع صديقها ديفيد (٨).

إن ازدواج الهوية وتشظيها لم يكن حصراً على الطفلة فقط، وإنما تجلى ذلك عند الوالدين أيضاً، نلمس ذلك من خلال تجربة زواجهما الفاشلة، فقد جاءت الأم إلى الشرق طمعاً بثرواته، كما صرحت بذلك لصديقتها (ميلي) (٩) "ظننت المزارع هنا كما وصفها لي، سحراً



أولاً اسمها كبة حلب، ثانياً ممن تحذيرنا بالضبط؟ أمن الذين سيعلمونها لغتها بالشكل الصحيح؟ أنظري إليها كم هي مرتبكة تتردد في اختيار الكلمات... هذه الطفلة ستكون عرضة للاستهزاء" (١٧).

لقد شكلت ظروف النشأة والتكوين التي عاشتها الراوية في خلق شخصية متشظية ومتذبذبة (١٨) "تعلمت كيف أنسج كلماتي التي تناسبني، وأهم من هذا وذاك تعلمت متى استخدمها، يجب أن أتلافى خطها عندما يكون مزاجك مرتبكاً مع أمي، ويجب أن أتعمد مزج اللغتين عندما أنوي زيارة صديقي في المزرعة" (١٩).

وقد تجلى عدم الشعور بالانتماء والضياع في أعلى مستوى له عند ضياع الراوية في انجلترا بعد مغادرتها العراق؛ لعلاج والدتها التي أصيبت بالسرطان، فرافقها الشعور بعدم الانتماء والاندماج مع المجتمع الجديد (٢٠) "ينقلون بين أشجار تيبست... أغصانها مثل أيدٍ تخشبت أصابعها إلى أعلى... مدينة المواعيد الدقيقة، بطاقات الائتمان، إصدارات سوق البورصة العالمية، المجلات الفاضحة في ضواحي سوهو، الأسود مع البيضاء والسوداء مع الأبيض... مدينة الضرائب، العطالة، المتشردون، ماء الشرب المصفى من ماء المجاري، المقاهي تبتلع الطبقة

على أبسط الأمور المتعلقة بها كتسريحة الشعر (١٤) "كل ما عندي هو جديلة تتدلى بين لوح ظهري، حذرتها مراراً من أن تقصها لتصف شعري على طريقتهما، هي تحبه قصيراً وعملياً وأنت تحب أن ترقبه يطول" (١٥).

لقد كانت الطفلة تدمج اللغتين معاً في أثناء حديثها مع والديها، مما يؤدي إلى غضب الأب الذي يريد أن يتكلم بلغتها العربية فقط، ولا تخلط معها الانكليزية (١٦) "كم أكره أن تكون معركة اليوم بسببي مثلما حدث عندما قلت مرة:

-ماما -أعطيني صحناً و spoon.

تأتيني زمجرتك لأعيد جملي

-أمي أعطيني صحناً وملعقة

سهوت مرة عندما طلبت منك وأنت تترك غرفتي في إحدى الأمسيات

-بابا لا تغلق الـ (door) خلفك، فإذا بك

تصفعه بشدة، لكن الحد الفاصل كان عندما سألتها في إحدى المناسبات

-مامي هل تعرفين كيف تعملين yellow كبة كالتى ذقتها عند أهل خدوجة؟

احتقن وجهها فوراً، أجبني:

-هل أكلت yellow كبة عندهم؟ ألم أحذرك؟

بلغ استياؤك قمته فضربت المائدة بقبضتك: يا سلام.

_هز كتفه:

إذن لنشرب نخبنا؟ سأسميه الارتباك...^(٢٧) لم تسفر العلاقة بين الشرق والغرب في هذه الرواية عن تلاحق الحضارتين وامتزاجهما ، بل انتجت شخصية مرتبكة ، وضائعة ، لم تستطع أن تحدد انتمائها ، بل بقيت تعيش على الهامش في كل مكان تذهب إليه بعد افتقادها جذور الانتماء لموطنها الأصلي^(٢٨).

ونلمس هذا الضياع للهوية الأصلية في رواية (عندما تستيقظ الرائحة)* ل(دنى غالي) من خلال مصير (نهلة صباح) إحدى الشخصيات الرئيسية في الرواية ، وانفتاحها الكامل على المجتمع الدنماركي مع رفضها لهويتها الأصلية ، لقد عبرت نهلة عن هذا من خلال حديثها للمحللة النفسية عن إعجابها للمعاملة الانسانية التي تتلقاها من قبل الآخر الغربي ، فهذا المجتمع يمدها بالثقة في نفسها ، ويشعرها بالخفة؛ لتحررها من كل المعتقدات البالية التي كانت خاضعة لها في بلدها الأصلي^(٢٩)، فلذلك انتحلت نهلة هوية أخرى تتناسب مع هذا الانفتاح على الآخر هي (هيلينا سابا) وتتعجب من بعض العقول التي ترفض الاندماج بالآخر "لم كل هذ الرفض وكأنّ الإنسان يجب أن يصب في

العاملة،...رجال ونساء يتبادلون البيرة من فوق الطاولة الخشبية والمساحيق المخدرة من تحتها"^(٢١)، فكانت تصلها أخبار الوطن في هذا المكان من خلال رسائل المدام (مدرسة الرقص) في بغداد، لكن مجتمعا الأصلي بعد خروجها منه كان يعدها على أنها آخر،^(٢٢) "أنتم يا صديقتي تسبقوننا بالزمن ونحن نسبقكم بالتوقيت فقط...كانت رسائلها قصيرة كلماتها تصطف عادة خلف فريقين من نحن وأنتم ،المسافات باتت أوضح من قبل"^(٢٣) وفي الوقت ذاته ينظر إليها المجتمع الانكليزي على أنها آخر مختلف عنه ولا ينتمي إليه^(٢٤)"رفعت جريدة عربية أتابع أخبار الشرق... علق أحد الطلبة أنتم تقرؤون من اليمين إلى اليسار أليس كذلك"^(٢٥) مما أدى إلى تأزم شعورها بالضياع والتلاشي وعدم الانتماء ،نلمس ذلك من خلال حديثها مع (أرنو) أحد الشباب الذي التفته بلندن^(٢٦)

"_أنت من هنا؟

_لست من هنا ولا من هناك ،فهذه المشكلة

_ضحك بطريقة مميزة

١. _أشك في أن تكوني من أب فرنسي أم

افريقية مثلي

_تستطيع القول إنني من خليط متناقض أيضاً



لأولادها كحال أولاد الدنماركيين^(٣١) ويصل الإحساس بالاغتراب من هويتها الأولى إلى أعلى مدى له، عندما كانت لا ترد على الرسائل التي تصلها من أهلها، بل كانت ترميها في سلة المهملات؛ لأنها كانت تعدها معنونة إلى هوية هي قد تخلت عنها، ولم تعد تعنى لها شيئاً، وقد وصل الإحساس بالانسلاخ اتجاه وطنها الأول واندماجها بالمجتمع الجديد إلى درجة الامتتان من المجتمع الجديد الذي منحها الحرية والخصوصية التي حرماها منها مجتمعها الأصلي^(٣٢). وكما نلمس ضياع الهوية والشعور بالانتماء للموطن الأصلي، والتشطي، والضياع في المنافي في رواية (الجدار) من خلال معاناة الشخصية الرئيسة (لارا) التي هجرت، ونفيت قسراً من موطنها في أثناء الحرب الإيرانية العراقية؛ لكونها ذات أصول إيرانية، لقد حرمت لارا من حقها في ممارسة التعليم في موطنها الأصلي الذي لا يعترف بانتمائها إليه، ويرفضها ويحرمها من أبسط حقوقها في الحياة^(٣٣) وقد ترك هذا الشعور بالضياع والتشطي أثره في نفس لارا حتى عندما تتزوج وتصبح حامل، فترفض جنينها، وتحاول اسقاطه؛ لأنها كانت لا تريد له نفس المصير^(٣٤) "أريد أن أنهي جميع

قالب اسمنتي يبقى عليه كما هو أمانة حتى يعود ثانية إلى تربته باسمه شكله وتربيته...اسمي لجديد هو جزء مني، الأمر ليس صعباً أو غريباً مجرد مكالمة إلى الجهة المسؤولة ستنتهي ومجاناً صفحة طويلة من حياتك عريضة مسخمة مريكة من حياتي أن التي اخترته لا أبي ولا أمي أو غيرهم"^(٣٥)، فهي غير مبالية للعنف والإهانة التي تتلقاها من زوجها رضا الذي تريد الانفصال عنه، واتهامه لها بالشعور بالنقص الذي تحاول تعويضه بالدنماركيين، فضلاً عن اتهامها لها بعدم مبالاتها لإحساس أولادها عندما يكبرون ويرونها على تلك الحالة، وأيضاً في حالة عودتها لأرض أجدادها كيف سينادونها بهذا الاسم الغربي، إلا إنه لم يقلل من إرادتها وعزيمتها كل هذا الرفض من قبل أبناء جلدتها، بل على العكس تصر على تغيير حياتها بالكامل محاولة مسح كل صور الماضي من ذاكرتها، وقد وصل نكرانها لهويتها الأصلية إلى حد سخريتها من الحزب اليساري الذي كانت منتمية إليه ورميها جميع الكتب والمجلات والنشرات الثقافية التي كانت تعنى لها الكثير، وكما تخلت عن عاداتها السابقة في الطعام، فقدمت بديلاً لوجبة الغداء أكلات ناشف، بالإضافة إلى شرائها كلباً

هوية الشخصية الرئيسة؛ لعدم تمكنها من الانسجام مع الموطن البديل، فيتضاعف احساس لارا بالتشظي، فكانت تعد المنفى كالسجن الأنيق المزخرف بشعارات ينادي بها، ولكنه لا يطبقها، فتحاول أن تروّض نفسها عليه، إلا أنّها لا تستطيع أن تتخلص من شعورها بالغرابة، والاختلاف عن عالمهم الغربي^(٣٩). وكما نجد الاحساس بالانتماء للموطن الأصلي عند شخصية أخرى وهو مهند الابن الاكبر لـ(لارا) من خلال تطوعه في صفوف الجيش الهولندي لاحتلال بلده ودفاعه عن مشاركة هولندا في الحرب على العراق^(٤٠) "أمي يجب أن تفهمي بأنّ لدى هذه البلاد مصالح عليا، فهولندا لا تستطيع أن ترفض عرضاً مغرياً كهذا، حالها حال الكثير من الدول الأخرى"^(٤١)، فقد تخلّى عن هويته الأصلية فلا يهتزّ لما يجري في العراق، ولم يشعر بالمسؤولية اتجاهه؛ لأنّه نشأ وترى في هولندا، فالعراق لا يمثل شيئاً بالنسبة إليه، ويتضح بأنّ شعور مهند بالانتماء للبلد الأصلي طبيعياً للفرد الذي نشأ وترعرع في مثل ظروفه الصعبة^(٤٢).
وأما في رواية (ديسكولاند)* لأسعد الجبوري، فنقف على تشظي وضياع الهوية، وانسراخها

عذاباتي ومعاناة إخوتي وأبناء عمتي والمهمشين من أبناء جلدتي، وأنّ أمحي ذلك الإرث الأزلي الذي طال كلما بنا الأمد في هذه البلاد القاسية القلب والمناخ ازداد فيها عددنا ومعاناتنا، وستمّت إلى ما لانهاية"^(٣٥).
ولقد واجهت أسرة لارا نفس المصير من الضياع، والتشظي على الحدود الإيرانية، حينما زجّت بهم السلطة العراقية، فالدولتان قد أنكرتهم، ولم تعترف بهم، فلم يبق أمامهم من سبيل سوى العيش في أحد البلدان الغربية؛ لكي يعيشوا حياتهم الطبيعية، إلا أنّ هولندا لا تنتظر إليهم إلا سوى حفنة من المتأخرين، فيدفنون الاحتقار إليهم تحت ثيابهم^(٣٦).
وقد تجلّى تشظي الهوية وضياعها في أجلّ وجوهه حينما شعرت لارا بالضياع وهي في منفاها بكندا، فهي لم تستطع الانفتاح على المجتمع الجديد؛ لئلا يخرط أبناءها في سلوكيات المجتمع الجديد والتي تتنافى مع ما تربت، ونشأت عليه^(٣٧) ف"نحن المبعثرون في أرض الله لتنتهي بنا الأيام في بلاد الأيام في بلاد باردة بعيدة نشيخ فيها مثل نباتات غيروا تربتها ومناخها لتذوي في النهاية لعدم تلاؤمها مع المناخ الجديد لتموت ببطء"^(٣٨)، فهذا الوصف للمكان يشير إلى تشظي وانسراخ



قطعتها على نفسها لمالك^(٤٧) بأن "تتجب له مخلوقاً آدمياً ..."^(٤٨). لقد واجه ابنه المثنى نفس المصير بالرفض، والعنصرية من قبل الآخر، فكانوا يطلقون عليه اسم الخنزير الأسود، ويعدونه مخلوقاً أجنبياً غريباً نشأ عن حالة ضعف الام جينفرس من علاقة غير شرعية، ومحملها إثم ذلك الفعل^(٤٩).

كما وقفت رواية (طشاري)* (لأنعام كجة جي) على مسألة ضياع الهوية، وتشظيها من خلال ما عانته شخصيات الرواية من ضياع وتشنت في المنافي الغربية، لقد أدت أحداث العراق الدامية إلى هجرة الدكتورة (وردية) بلدها الأصلي، بعد أن قدّمت كل ما لديها من أجل خدمته، فتعيش في آخر عمرها مغتربة وحيدة من دون أسرته وأولادها تعاني من الآلام الغربة ووحشتها "كأنّ جزاراً تناول ساطوره وحكم على أشلائها أن تتفرق في كل تلك الأماكن، رمى الكبد إلى الشمال الأمريكي وطوّح بالرتتين صوب الكاريبي وترك الشرايين طافية فوق مياه الخليج، أمّا القلب فقد أخذ الجزار سكينه الرفيعة الحادة تلك المخصصة للعمليات الدقيقة وحزّ بها القلب رافعاً إياه باحتراس من متكئته بين دجلة والفرات ودحرجه تحت برج إيفل وهو يقهقه زهواً بما اقترفت يده"^(٥٠).

من خلال مغترب عراقي في بلاد ديسكولاند، ف(مالك) أحد الشباب الهاربين من بلدهم الأصلي؛ لكي ينعموا بالحياة الطبيعية في بلاد ديسكولاند، إلا أنّ هذه الحياة الطبيعية، لم تحقق له في هذه البلاد، ولم يفارقه الشعور بالوحدة والضياع والتشظي^(٤٣) "شعرت بنفسي كما لو أنني لوح من الألواح السومرية أصابه الاضطراب في لحظة غامضة من الزمن فدارت به الأمواج محمولاً من أرض ما بين النهرين إلى أعالي بحر الشمال... كيف لنطفة شرقية مثلي أن تغادر رحمها الطبيعي فتصبح قشة في هذا التيه، المخيف الموحش...؟ وذلك ما حدث معي طوال سنوات الاغتراب فقد بتُّ أشعر بأن وجودي الشخصي ليس إلا كوة عظام معلقة على ظلام"^(٤٤)، ولم يستطع مالك الاندماج بالمجتمع الاسكندنافي حتى بعد تعرفه على جينفرس وإقامته علاقة جسدية معها كان ثمرتها ابنه المثنى، وقد سماه بهذا الاسم^(٤٥) "ربما تيمناً بثنائية فصيلتين من الجينات التي اتحدت ذات يوم تحت تأثير طغيان من الشهوات المشتركة ليتشكل من أتونها المولود هكذا كانت الفكرة الأولية للعلاقة العاصفة ما بين مالك وجينفرس"^(٤٦)، إلا أنّ هذا الحب سرعان ما تتخلى عنه جينفرس، وتنقض وعودها التي

الفرنسي هو أعلى من عينيها بعدما أصبحت لا تملك بلداً غيره، فهويتها الأصلية، قد ضاعت وتمزقت منذ الاحتلال الأمريكي للبلد، وتدميره، وتمزيقه، واشعال الطائفية في جسده^(٥٤) "لا أود العودة إلى هناك ولو من باب العلم بالشيء تقطعت الروابط منذ أن اجتاح الشاشات عراقيون لا يشبهون العراقيين نهايون وقطاعو رؤوس وعملاء يعلقون على صدورهم أنواط شبهاتهم الأقوى بينهم هو الأكثر حضوة لدى المحتل. طائفيون يسألونك عن مذهبك قبل السلام عليكم"^(٥٥).

وفي رواية (الأجنبية) لـ(عالية ممدوح) نلمس ضياع الهوية، وتشظيها بين المنفى الأوروبي، والبلد الأصلي من خلال حكاية الشخصية الرئيسة(الراوية) التي كانت تسكن في فرنسا، إلا أنها لم تستطع الاندماج بذلك المجتمع على الرغم من كل محاولات لترويض نفسها على فهم، وتعلم الفرنسية، إلا أنها كانت تفتش في ذلك، فلم تستطع استساغة اللغة الفرنسية؛ لأنها كانت ضائعة، فرنسا ليس بلدها الأصلي، ولا تعلم إلى أي مدى باستطاعتها البقاء فيه، ولقد كانت مهددة من قبل زوجها بطلبها لبيت الطاعة، فضلاً عن عدم مقدرتها على تجديد إقامتها؛ لعدم امتلاكها المستمسكات الأصلية

أماً (ياسمين) ابنة الدكتورة وردية فقد قامت بالزواج من رجل لا تعرفه جيداً؛ لكي تتخلص من جحيم العراق، ومن الموت المترص بهم في كل لحظة^(٥٦).

لقد وصل انشراح الهوية وتشظيها في المنافي الغربية إلى درجة فقدان المنفى لمفردات لغته كما هو حال (اسكندر) ابن ابنة أخ الدكتورة وردية للعادات والتقاليد البغدادية التي تعيب على الولد ارتداء التراجي، في حين هو يتزين بها، ولا يرى في ذلك عيباً؛ لأنه لا يفقه شيئاً عن عادات وتقاليد بلده الأصلي، وكذلك عدم معرفته لكثير من مفردات العامية العراقية: كالدولمة، وكلاوجي، وطلعت روجي، وعابت هلجيرة، بالإضافة إلى عدم إجادته واتقانه للغة العربية^(٥٧).

إن ضياع الهوية الأصلية، وتذبذبها، قد جعل أم اسكندر، وهي ابنة أخ الدكتورة وردية في حالة خوف، وفرع مستمر ودائم على هويتها الجديدة من الضياع، وقد وصل بها هذا الشعور إلى درجة استعادها لفقدان عينيها، على ألا تفقد جوازها الفرنسي الذي يثبت انتماءها لفرنسا، وقد وصل بها الأمر إلى درجة الخشية عليه من الضياع، عندما كانت تتركه في البيت^(٥٨)، فهذا الجواز



في فرنسا كنت أظنّ أنّ البلد يصلح أن يكون مائدة نصية خارقة للعادة ونعيش على نفقتها وتحت وطأة ثقلها، فدائماً هناك وقت للانفصال عنه وبذرائع شتى ودائماً نمثلك الوقت التام لكي نفرط فيه...وها أنا أحبّ الطواف ما بين الغبار الفرنسي المهبذب قليلاً لكي اتحرر من سأم غباري العراقي الأول"^(٥٩).

وفي رواية (كيف تقتل الأرنب) نجد الشخصية الرئيسية (الراوي) قد تخلّى عن انتمائه لموطنه الأصلي، فهو رافض لذلك الانتماء الذي أدى به إلى الغربة، والمنفى والشتات، والضياع بعد رفضه للكتابة عن الطاغية في ذلك الوقت، فكان يشعر بأنّ وجوده في المنفى كالحشرة الدابة إليه بفعل الأيديولوجيات^(٦٠)، فيعيش صراعاً ذاتياً من أجل التخلي عن الحنين إلى وطنه^(٦١) "يجب أن تنزع عنك دبق الوطن..."^(٦٢)، فيصدم بالمجتمع الكندي إلاّ أنّه لا يوجد لديه مأوى آخر^(٦٣).

ف"الاغتراب، الوحشة تدهمك على حين غرة ولا يمكنك الإفلات، وإلى أين؟ نحن القادمون من بلاد التشنجات والهستيريا والمؤامرات المستمرة من قبل الصليب العالمي ورؤى الشيطان وتدمير بابل من جديد"^(٦٤)، فالبلد الأصلي طرده، وأذله، ولا يمكنه العودة إليه مجدداً، وفي الوقت ذاته يعلن براءته من هذا العالم

الثبوتية لها^(٥٦) "لماذا عليّ أن أتعلّم الفرنسية وهي ليست من أوليات وجودي هنا، فقد اختطف بطريقة ما تنفيذاً لقرار وزارة العدل من الجائز أنّ كلّ هذا لن يحصل قط لكنني أعيش تحت ثقله النفس العنيف"^(٥٧).

لقد أرادت تغيير الانتماء لوطنها الأصلي؛ بسبب ما تعانيه بسببه من الآلام الغريبة، ووحشتها، فلا تريد أن تمتلك شبراً منه، حتى لو كانت مسافة قبر^(٥٨) "لا أريد الانتساب إليه ولا الانتماء ولا الوفاء ولا الغناء ولا الفناء من أجله لا أريد أن أقطع من نفسي وأعطيه نفساً من أنفاسي ولا ملمترًا من دمي السائل القاني العتيق، لا أريد أن انتظره بعد اليوم؛ لكي أبدأ معه حياة عريضة، أو ضيقة .

أريد أن اكشط وابتر عضواً بعد عضو؛ لكي لا يبقى فيّ ما يسترجعه ذلك البلد مني ففتحت له شبابيك العالم والمدن والقارات والولايات؛ لكي يتطاير ويتفتت يتشظى ويختفي بالطرق العلمية والشرعية والرياضية والعاطفية، لم أعد أفهم أي شيء منه وما يجري فيه... فالיום أرغب في موت وطني، كأن يصيبه اعصار أكثر ممّا يحصل له فلا يبقى أي أحد من ذريته وسلالته ليأخذ العزاء به... اجرائياً فشلت في التوقف عن الجري وراءه وفشلت أكثر في التعرف عليه الأجنبية كنت هناك وما زلت هنا

والتشظي. كما نلمس ضياع الهوية وتشظيها في رواية (الكافرة) من خلال تخلي الشخصية الرئيسية عن انتمائها لهويتها، ففي أول يوم من وصولها إلى بلجيكا، خلعت فاطمة النقاب الذي فرضه عليها الإرهابيون بعد سيطرتهم على مدينتها، لقد تمكنت فاطمة من الحصول على حريتها في المجتمع البلجيكي، فأعجبت بنفسها، وأحببتها، وتغيرت نظرتها إلى جسدها، ففي السابق كانت لاتعد نفسها جميلة، أما الآن فهي ترى نفسها جميلة، وجذابة، وباستطاعتها إغواء الرجال والتمتع بهم، فتندم على حياتها السابقة^(٧٠) "أين كنت؟ في أية ظلمة كنت أعيش، في أي مخبأ، كانت حياتي؟ أنا مثل أية امرأة أخرى... أنا أيضاً أحب أن يراني الآخرون جميلة أحب أن يروني مثيرة، جذابة محبوبة، أليس من الطبيعي أن أرى نفسي هكذا؟ من أين جاءت كراهيتنا لأجسادنا؟ لماذا نكره أنفسنا؟ لماذا كان عليّ أن أخبئ جسدي مثل عورة؟ لماذا أخفيه مثل خطأ؟ ألم يخلقه الله؟ أليس كل ما خلقه الله جميلاً؟"^(٧١)، فأصرت على تعلم اللغتين الفرنسية، والفلامانية، على الرغم من الصعوبة التي واجهتها، لكنّها أصرت على ذلك؛ لكي تتمكن من الاندماج في هذا المجتمع، ولا تعيش على

الغريب الذي يحيل كل شيء إلى^(٦٥) "الوقت والأعداد والساعة والدقيقة والذرة وساعة بيغ بن ويحيل إنسانيتنا معه إلى..."^(٦٦)، بالإضافة إلى وجود شبكات النصب الاجتماعية التي ينظمها المهاجرون العرب؛ لاصطياد الجدد من المهاجرين، فيقدم شرحاً تهكمياً لتلك العمليات التي يقومون بها من أجل استغلال السلطة الكندية، فالمهاجر الذي يحلم بالسفر إلى الغرب؛ لبناء مستقبله، يصدم بكثير من الأمور كاستعباده، وسيره بظهر منح، وركض وتهميشه وتسابقه وقلقه، وكرهه من أصحاب العمل الذين يعمل لديهم؛ لأنه يكره المثليين جنسياً وبعد كل هذا سيصاب بالرهاب^(٦٧) وقد وصلت دقة النظام الهولندي إلى عدم استطاعة الفرد الخلاص من حياته بالقيام بالانتحار وقتل نفسه؛ لذلك لم يجرىء الراوي على فعل الانتحار كما يفعل الإنسان اليائس من حياته في مجتمعاتنا العربية؛ لأن السلطة الكندية ستحاسبه على ذلك، فليس له الحق التصرف بحياته، كل ذلك يعرضه علينا الراوي بطريقة تهكمية^(٦٨)، فهو "نقطة بلا نقطة في بحر من النيات والأفكار المتشابكة لهذه المخلوقات لا فرق هنا بين التشرّد في تورنتوا وفي بغداد"^(٦٩) فكلاهما يشعرانه بالضياع



فكانت تغار من السيدات البلجيكيات اللاتي يسكنن في شقق مترفة؛ لذلك قامت بتغيير سكنها^(٧٥). أما نبيل في رواية (عازف الغيوم) فقد تخلى عن انتمائه الأصلي وقرر الهجرة إلى أوروبا؛ لكي يحقق أحلامه بالمدينة الفاضلة التي لا تتحقق إلا في أوروبا، وأما بلده الأصلي فقد تعرض فيه للضرب، والإهانة، والعنف الجسدي من الجماعات الإرهابية التي تسيطر على مدينته، فلم يعد مناسباً له البقاء فيه خاصة بعدما أصبح لا يحترم الموسيقى ويقدرها؛ لذلك قرر الهجرة إلى أوروبا^(٧٦) "الهروب إلى الحياة الكائنة فيما وراء البحار...سنذهب هناك، سنذهب إلى مدينة فاضلة، تقع وراء البحار"^(٧٧). لقد سعى نبيل جاهداً للاندماج، والانفتاح على المجتمع البلجيكي من خلال علاقته بـ(فاني)، وإعجابه الشديد بتصرفاتها التي لم تكن خاضعة لأي مؤشر اجتماعي، أو ديني^(٧٨)، إلا أن أحلامه بالمدينة الفاضلة، والهارموني، لم تتحقق في أوروبا أيضاً، فقد تعرض للضرب وتحطيم آلتة الموسيقية التشيللو؛ بسبب عدم امتثاله لنصائح جاره التركي بعدم إصدار فاني أصواتاً في أثناء ممارسته الجنس معها^(٧٩)، مما دفعه إلى الاعتقاد أن لا سبيل لتحقيق حلمه بالمدينة الفاضلة إلا بالخلاص من المهاجرين الذين

هامشه متروكة ومهملة، فكانت تعد نفسها على أنها ليس أقل ذكاء من الناس الذين تعلموها^(٧٢)، وقد وصل بها النكران لهويتها، وجذورها العربية أنها أرادت أن تغير من سحنها العربية، فلا تريد أن يعرف أحد من الأوروبيين سحنها العربية ولكنها، ومن أين هي قادمة، ويكتشف جذور انتمائها، فكانت متنكرة لأصلها العربي^(٧٣). ولم تكن فاطمة بهذه الأساليب لنكران جذور انتمائها الأصلية، بل أرادت أن تصبح مواطنة بلجيكية حقيقية، وليست لاجئة عربية فقيرة؛ لذا قامت بتغيير هويتها بالكامل؛ لكي تتمكن من تغيير حياتها، فقامت بانتحال اسم صوفي البلجيكية، وأضافت إليه لقب عائلة بلجيكية هي (دومونت)، فأصبحت صوفي دومونت فأرادت أن تغير قدرها وحظها من الحياة؛ لأنها لم تر من الاسم الأول إلا العذاب والألم، والحرمان، فلعل هذا الاسم البلجيكي الجديد، سيجلب الحظ إليها ويمنحها حياة جديدة وسعيدة، ويجعل منها امرأة محترمة، تحضى باحترام المجتمع البلجيكي^(٧٤) بالإضافة إلى قيامها بتغيير سكنها القديم الذي لا يتلاءم مع هويتها الجديدة، فقد أجرت شقة في مكان راق، لا يليق إلا بالطبقة البلجيكية العالية، لقد كانت حاملة بحياة كالتالي يعيشها السكان الأصليون

ولم يخضع للحرمان الذي كان يعيشه البلد في تلك الحقبة المظلمة، فكان متجاهلاً لتلك الظروف ومداوماً على تحقيق رغباته: كتقمصه لشخصية مايكل جاكسون، وقيامه بالرقص، وسماعه لأغاني جي زي وسنوب دوك والأمينيم، فكان حريصاً على تلك العادات على الرغم من الحصار الذي يجتاح البلد^(٨١).
وحيثما تحقق حلم (علي) بالوصول إلى أوروبا، صدم برفض طلبه باللجوء أكثر من مرة، وعدم اعتراف هذا المجتمع الجديد به، إلا أن علياً لم ييأس وبقي يحاول في كل مرة الحصول على الإقامة، لكن جميع محاولاته تلك في الحصول على الإقامة لم تجد نفعاً، إلا حينما تظاهر بالتخلي عن ديانته المسلمة، واعتناقه للديانة المسيحية من خلال حضوره للكنيسة، وإقامته للشعائر، والطقوس المسيحية، واعتكافه على قراءة، وفهم كتبهم، وقيامه بالوعظ والنصح، لقد ارتدى علي قناع المسيحية؛ لكي يتمكن من الحصول على الإقامة^(٨٢). ولم يكن ذلك القناع هو الوحيد الذي ارتداه علي، وإنما ارتدى قناعاً آخر؛ لكي يتمكن من العثور على العمل، ألا وهو قناع المسلم حينما كان رئيسه (يلماز) مسلماً، فكان علي متظاهراً بكونه مسلماً متديناً؛ لكي

يسكنون في بلجيكا؛ لذلك اشترك في مظاهرة نظمت ضد المهاجرين العرب، ودخل بين المتظاهرين البلجيكين، فقاموا بضربه؛ لأنهم ميزوه من سحنته العربية المعروفة، في حين هو كان مناصراً لهم^(٨٣). وكما نلمس هذا الضياع والتشطي في رواية (صراع الأفعى)* لـ(كلكاش نبيل) من خلال ما يرويهِ (علي الموسوي) الشخصية الرئيسة في الرواية، وقضية معاناته في الحصول على الإقامة، والجنسية الألمانية، لقد كان علي حالماً بالهجرة إلى أوروبا، والإقامة فيها؛ لكي يتخلص من مجتمعه العراقي المحافظ الذي لا يتناسب مع أفكاره، وفلسفته، ورؤيته للحياة، فهو حينما كان في بغداد تعرض لانتقادات كثيرة من أسرته، ومجتمعه على هيئة ملابس، وإطالة شعره، وتركه من دون قص، مما أدى به إلى كره مجتمعه الذي لا يحترم حقوقه الخاصة في العيش، إلا أن علياً لم يخضع لسلطة العادات والتقاليد في مجتمعه العراقي، ولم تأثر به انتقاداتهم المستمرة له، وإنما بقي معارضاً، ومختلفاً عنهم في أفكاره، فعلى الرغم من الحصار الاقتصادي الذي كان مفروضاً على العراق في حقبة التسعينات، يبقى علي مستمراً بممارسة عاداته، وطبائعه،



المرتبطة بأسرة وأفكار وقيود جلبتها من مجتمعها العراقي المحافظ.

٣- لقد صور المنجز الروائي العراقي كثيرا من الشخصيات الضائعة والمتذبذبة في المنفى الغربي، والتي كانت تعيش على هامشه، وقد سعت تلك الشخصيات بكل الوسائل والطرق لإرضاء ذاتها من خلال ممارسة المظاهر السلبية في المجتمع الغربي والتي كانت ممنوعة عليها في مجتمعها العراقي الأصلي؛ نتيجة لسلطات كثيرة كالدولة والدين والتقاليد.

٤- لقد ضاعت الهوية العراقية في المنفى الغربي لدى الكثير من الشخصيات؛ لأن تلك الشخصيات لم تمثل لديها الهوية العراقية شيئاً أساسياً من مقومات كيانها وشخصيتها؛ وإنما سعت تلك الشخصيات بكل الوسائل للانسلاخ منها؛ لكي تتمكن من ممارسة المكبوتات الممنوعة في مجتمعها العراقي الأصلي.

٥- لقد جسد المنجز الروائي العراقي ضياع الهوية وعدم الشعور بالانتماء لدى بعض الشخصيات في الوطن الأصلي؛ نتيجة لاضطهادها وقمعها من سلطة النظام السابق، فكانت تلك الشخصيات محرومة من نعمة التمتع بالعيش بموطنها الأصلي بحرية وكرامة ومن ممارسة حقوقها كأبي مواطن عادي يمارس نفس الامتيازات والحقوق بموطنه

يحافظ على عمله معه^(٨٣)، لقد ارتدى علي أقنعة عديدة من أجل الحصول على الإقامة.

ووقد وصل نكران الهوية الأصلية إلى أعلى مدى له حينما حرص (علي) الشخصية الرئيسة على عدم الاحتكاك بمجتمع المهاجرين العرب ومقاطعته لهم؛ لكي لا يذكرونه بالإسلام، والعادات والتقاليد، والطائفية المقيتة التي هرب بسببها من العراق^(٨٤).

ومما لاشك فيه أن كثرة الأقنعة التي ارتداها علي قد جعلته ضائعاً، لا يعرف ذاته؛ لتلونه وارتدائه لأكثر من قناع في وقت واحد، إذا كان مستقبله سيكون متوقفاً على ذلك القناع^(٨٥) "لم أعد أر وجهي الحقيقي حتى في المرآة، لم يعد هنالك علي حقيقي يمكن أن أميّزه أنا نفسي، أو أقدمه للآخرين"^(٨٦).

الخاتمة:

١- لقد كانت معظم الشخصيات المنسلخة عن هويتها الأصلية تعاني من صراع حاد مع الماضي؛ مما أدى إلى اندفاعها السريع للتخلص من أدران الماضي الذي يذكرها باضطهادها وقمعها من سلطة الدولة والمجتمع الذي يمارس عليها سلطة العادات والتقاليد والديانة والموروثات الثقافية.

٢- لقد تمثل انسلاخ الهوية في أجل تجلياته عند الشخصيات المنفردة المتحررة وغير

مواطنها الأصلي أم في الموطن البديل (المنفى
الغربي).

الأصلي، مما أسهم في ضياع هويتها الأصلية
وتشظيها بين المنافي العربية والغربية، فقد
بقيت تلك الشخصيات متذبذبة ضائعة، ولم
تشعر بالاطمئنان والانتماء سواء أكانت في
الهوامش:

- (١) ظ:الرؤية الاجتماعية وتطورها في الرواية العراقية في المنفى: ١٥١.
- (٢) ظ:نفسها.
- (٣) ظ:نفسها: ١٥٥.
- (٤) ظ:الرؤية الاجتماعية وتطورها في الرواية العراقية في المنفى: ١٥٩.
- (٥) كم بدت السماء قريبة: ١٣.
- (٦) ظ:الرؤية الاجتماعية وتطورها في الرواية العراقية في المنفى: ١٥٥.
- (٧) كم بدت السماء قريبة: ١٣.
- (٨) ظ:الرؤية الاجتماعية وتطورها في الرواية العراقية في المنفى: ١٥٦.
- (٩) ظ:نفسها.
- (١٠) كم بدت السماء قريبة: ٢٩.
- (١١) ظ:نفسها: ١١-١٢-١٣.
- (١٢) ظ:الرؤية الاجتماعية وتطورها في الرواية العراقية في المنفى: ١٥٧.
- (١٣) كم بدت السماء قريبة: ١٦٦-١٦٧.
- (١٤) ظ:الرؤية الاجتماعية وتطورها في الرواية العراقية في المنفى: ١٥٨.
- (١٥) كم بدت السماء قريبة: ٧.
- (١٦) ظ:الرؤية الاجتماعية وتطورها في الرواية العراقية في المنفى: ١٥٨.
- (١٧) كم بدت السماء قريبة: ٢١.
- (١٨) ظ:الرؤية الاجتماعية وتطورها في الرواية العراقية في المنفى: ١٥٩.
- (١٩) كم بدت السماء قريبة: ٢٢.
- (٢٠) ظ:الرؤية الاجتماعية وتطورها في الرواية العراقية في المنفى: ١٥٩.



- (٢١) كم بدت السماء قريبة: ١٥٢، ١٥٨.
- (٢٢) ظ: الرؤية الاجتماعية وتطورها في الرواية العراقية في المنفى: ١٦٠.
- (٢٣) كم بدت السماء قريبة: ١٩٦.
- (٢٤) ظ: الرؤية الاجتماعية وتطورها في الرواية العراقية في المنفى: ١٦٠.
- (٢٥) كم بدت السماء قريبة: ١٥٤.
- (٢٦) ظ: الرؤية الاجتماعية وتطورها في الرواية العراقية في المنفى: ١٦٠.
- (٢٧) كم بدت السماء قريبة: ١٦٣-١٦٤.
- (٢٨) ظ: الرؤية الاجتماعية وتطورها في الرواية العراقية في المنفى: ١٦٠-١٦١.
- * عندما تستيقظ الرائحة: دنى غالي، دار المدى، ٢٠٠٦.
- (٢٩) ظ: نفسها: ٤٢.
- (٣٠) ظ: نفسها: ٥٢.
- (٣١) ظ: نفسها: ٥٧.
- (٣٢) ظ: عندما تستيقظ الرائحة: ٦٢.
- (٣٣) ظ: الجدار: ١٦٦-١٦٨.
- (٣٤) نفسها: ١٦٧.
- (٣٥) ظ: نفسها: ٢٧٧.
- (٣٦) نفسها.
- (٣٧) ظ: نفسها: ٣٥٨-٣٦٦.
- (٣٨) نفسها: ٢٨.
- (٣٩) ظ: نفسها: ٣٤، ٤٦.
- (٤٠) ظ: نفسها: ٣٦٧.
- (٤١) ظ: نفسها: ٢٠-٢١.
- (٤٢) ظ: نفسها: ٢٠-٢٣.
- * نيسكولاند: أسعد الجبوري، ط١، دار فضاءات، عمان، ٢٠١٠.
- (٤٣) ظ: نفسها: ١٧.
- (٤٤) نفسها: ٥، ٦، ١٠-١١.
- (٤٥) ظ: نفسها: ٣٣.
- (٤٦) نفسها: ٣٣.

- (٤٧) ظ:نفسها.
- (٤٨) نفسها.
- (٤٩) ظ:نفسها.
- *طشاري: انعام كجة جي، ط١،بيروت/لبنان،٢٠١٣.
- (٥٠) نفسها:١٧.
- (٥١) ظ:نفسها:١٩.
- (٥٢) ظ:نفسها:٤٥.
- (٥٣) ظ:طشاري:٦٨.
- (٥٤) ظ: نفسها.
- (٥٥) نفسها.
- (٥٦) ظ:الأجنبية:٦٠.
- (٥٧) نفسها:٦٤.
- (٥٨) ظ:نفسها:٦٨.
- (٥٩) ظ:نفسها:٩١-٩٣، ١٠٧.
- (٦٠) ظ:كيف تقتل الأرنب:١٢-١٣.
- (٦١) ظ:نفسها:١٦-١٧.
- (٦٢) نفسها.
- (٦٣) ظ:نفسها:٢٥.
- (٦٤) نفسها.
- (٦٥) ظ:نفسها:٥٣.
- (٦٦) نفسها.
- (٦٧) ظ:نفسها:١٩٦.
- (٦٨) ظ:نفسها:٢٢٨.
- (٦٩) نفسها:٢٤٧.
- (٧٠) ظ:الكافرة:١٦٤-١٦٥.
- (٧١) نفسها.



- (٧٢) ظ:نفسها: ١٦٦.
- (٧٣) ظ:نفسها: ١٦٧.
- (٧٤) ظ:نفسها: ١٧٤.
- (٧٥) ظ:نفسها: ١٧٧-١٧٥.
- (٧٦) ظ:عازف الغيوم: ٢٤-٢٥.
- (٧٧) نفسها: ٤٠.
- (٧٨) ظ:نفسها: ٦٤-٧٠.
- (٧٩) ظ:نفسها: ٧١-٧٥، ٨١.
- (٨٠) ظ:نفسها: ٩٥، ١٠٢-١٠٥.
- * صراع الأفتنة: كلكامش نبيل، ط١، دار الفارابي، بيروت /لبنان، اب، ٢٠١٦.
- (٨١) ظ:نفسها: ١٧٢-١٧٠.
- (٨٢) ظ:صراع الأفتنة: ٦٠، ٢١٤
- (٨٣) ظ:نفسها، ٢٠٤ .
- (٨٤) ظ:نفسها: ٢٣٢، ٤٨٧-٤٨٨.
- (٨٥) ظ:نفسها: ٢٠٥، ٤١٦.
- (٨٦) نفسها: ٢١٣.

المراجع:

أولاً: الروايات:

- الأجنبية: عالية ممدوح، ط١، دار الآداب ، بيروت/لبنان، ٢٠١٣.
- الجدار: ليلي جراغي، ط١، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ٢٠٠٩
- ديسكولاند: أسعد الجبوري، ط١، دار فضاءات، عمان، ٢٠١٠.
- صراع الأفتنة: كلكامش نبيل، ط١، دار الفارابي، بيروت /لبنان، أب ٢٠١٦.
- طشاري: إنعام كجة جي، ط١، بيروت/لبنان، ٢٠١٣.
- عازف الغيوم: علي بدر، ط١، منشورات المتوسط، إيطاليا، ٢٠١٦. -الكافرة: علي بدر، ط١، منشورات المتوسط، ميلانو /إيطاليا، ٢٠١٥.
- الكافرة: علي بدر، ط١، منشورات المتوسط، ميلانو /إيطاليا، ٢٠١٥.
- كم بدت السماء قريبة: بتول الخضير، ط٥، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت/لبنان، ٢٠٠٩.
- كيف تقتل الأرنب: صلاح صلاح، ط٢، دار سطور، بغداد، ٢٠١٥.

ثانيا: الرسائل والأطاريح:

- الرؤية الاجتماعية وتطورها في الرواية العراقية في المنفى: ميثاق حسن العطار (أطروحة دكتوراه)، كلية الآداب، جامعة القادسية، ٢٠١٣.

